

أعلام ومشاهير

«الإمام ابن قتيبة»

كتاب «أدب الكاتب»

تيزن الأخبار

بقلم:

محمد بن عبد الرحمن
آل إسماعيل - الأحساء

«الحلقة الأولى»

علمنا هذا إمام في الأدب ، واللغة والفقہ والحديث،
والتفسير، والفلك، والتاريخ، إمام في سائر العلوم الإسلامية
واللسانية. هذا هو شأن علماء المسلمين، وهو الذي جعلهم
يبرزون على غيرهم، وهو الذي جعل المكتبات في العالم تزخر
بالنافع والمفيد في شتى العلوم والمعارف لأنهم يؤمنون بأن
العلوم بعضها يأخذ برقاب بعض فإذا كتب العالم المسلم في
الشرع فلا بد له من إقناع الآخرين، إذا هو بحاجة الى (علم
البيان)، ولا بد أن يبين الفاعل والمفعول به والداخل في قضيته
والمستثنى منها، إذا لابد له من معرفة (علم النحو)، ثم إنه
يحتاج في حديثه الى تمهيد وتوطئة ليسهل جذب القارئ أو
السامع بالأسلوب الجذاب، إذا لابد له من معرفة (علم الأدب)،
وسوف يستشهد بوقائع، إذا لابد له من معرفة (التاريخ)،
وهناك مواسم وأوقات لبعض العبادات، إذا لابد أن يعرف
شيئاً من (علم الفلك)، وهو أساساً مستدل بالكتاب الكريم،
إذا سيكون مستحضراً الآية الكريمة وتفسيرها و شيئاً من
الغريب وفقه اللغة، ومستدل كذلك بالسنة المطهرة، إذا لابد أن
يعرف صحة الحديث المستشهد به... وهلم جرا. إذا لا غرابة
أن يكون علماء المسلمين متخصصين في أكثر من فن «فابن
قتيبة» و«ابن جرير» و«ابن حزم»، و«النووي» و«ابن قدامة»
و«الذهبي» و«ابن كثير» و«ابن تيمية» و«ابن القيم»
و«السيوطي» وغيرهم، قد نهجو هذا النهج في شمولية
المعرفة. قدمت بهذه المقدمة، حتى يزول الاستغراب عن
مثقفينا وشباب هذا العصر، حيث ترى دكتوراً، يكتب في
قضية من القضايا، لا يلتزم بالقواعد النحوية، يرفع المنصوب،
وينصب المرفوع، ويحرك المجزوم!! فإذا ما ناقشته أجابك بأنه
لم يتخصص في النحو، وما درى أن العلوم اللسانية من نحو
ولغة وبيان هي القنطرة للعلوم الإسلامية وغيرها! بل لكل
العلوم فهي الجسر الموصل وبدونها تنقطع العلوم.

((أكرم))

الكرم

كريم

كرم

كريم

كريم

كريم

(ابن كثير)

في ذلك مصنفات متعددة وقال فيه صاحب كتاب «التحديث بمناقب أهل الحديث»: وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء والفضلاء أجودهم تصنيفاً، وأحسنهم ترصيفاً، له زهاء ثلاثمائة مصنف، وكان يميل إلى (مذهب أحمد وإسحاق)، وكان معاصراً لإبراهيم الحربي ومحمد بن نصر المروزي، وكان أهل المغرب يعظمونه، ويقولون: من استجاز الوقعة في «ابن قتيبة» يتهم بالزندقة، ويقولون: كل بيت ليس فيه

ترجمته:

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري النحوي اللغوي، وقيل المروزي، كانت ولادته سنة ثلاث عشرة ومائتين ولد ببغداد، وقيل بالكوفة، وأقام بالدينور مدة قاضياً فنسب إليها (١).

وهو صاحب المؤلفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة اشتغل ببغداد، وسمع بها الحديث على (إسحاق بن راهويه)، وطبقته، وأخذ اللغة عن (أبي حاتم السجستاني) وذويه (٢)، وروى عن «الدباسي»، و«أبي سعيد الضرير» (٣) قال (ابن خلّكان) سكن بغداد وحدث بها عن إسحاق بن راهويه وأبي إسحاق إبراهيم بن سفيان بن سليمان بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن زياد بن أبيه الزيادي، وأبي حاتم السجستاني وتلك الطبقة (٤). وأخذ عن غيرهم الفقه والحديث واللغة.

وأجمع علماء التراجم على أن (ابن قتيبة) من أسرة فارسية، كانت تقطن مدينة «مرو» وأنه ولد أواخر خلافة (المأمون بن هارون الرشيد) كما أنهم اتفقوا على أنه نشأ ببغداد التي كانت حاضرة الخلافة الإسلامية، وموطن العلماء الأعلام في كل فن، وكعبة العلم التي يحج إليها رواد الثقافة والمعرفة من جميع أنحاء البلاد الإسلامية (٥).

روى عنه ابنه أحمد، وعبد الله بن درستويه الفارسي (٦) وعبد الله بن عبد الرحمن السكري

مكانته العلمية ودفع ما نسب إليه:

هذا الإمام الجليل ابتلي مثل غيره، فقبل فيه، وتقول عليه، ونسب إليه، ولكن الله سبحانه وتعالى، أخرج له من ينتصر له ويذب عنه من رجال عدول، يرجع إليهم في الجرح والتعديل.

قال عنه: (شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية) قدس الله روحه في تفسيره لسورة الإخلاص، وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق، والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة، وله

شيء من تصنيفه لا خير فيه. قلت: ويقال: هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنه خطيب السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة.

ثم قال «شيخ الإسلام»: وأما اللغويون الذين يقولون: إن الراسخين لا يعلمون معنى التشابه، فهم متناقضون إلى أن قال: وابن الأنباري الذي بالغ في نصر ذلك القول هو من أكثر الناس كلاماً في معاني الآي المتشابهات يذكر فيها من الأقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف ويحتج لما يقوله في القرآن بالشاذ من اللغة، وهو قصده بذلك الإنكار على ابن قتيبة، (وليس هو أعلم بمعاني القرآن

وفاته يرحمه الله:

توفي في ذي القعدة سنة سبعين، وقيل سنة إحدى وسبعين ومائتين، وكانت وفاته فجأة حيث صاح صيحة سمعت من بعد، ثم أغمى عليه ومات. وقيل: أكل هريسة فأصابته حرارة، ثم صاح صيحة شديدة ثم أغمى عليه الى وقت الظهر ثم اضطرب ساعة، ثم هدأ فمازال يتشهد الى وقت السحر، ثم مات يرحمه الله تعالى (١٤).

بعض مؤلفاته:

«غريب القرآن - مشكل القرآن - معاني القرآن - كتاب القراءات - إعراب القراءات - الرد على القائل بخلق القرآن - آداب القراءة - غريب الحديث - مشكل الحديث - تأويل مختلف الحديث - إصلاح غلط أبي عبيد - المسائل والأجوبة - دلائل النبوة - جوامع الفقه - كتاب التفتيحه - كتاب الأشربة - الرد على المشبهة - أدب الكاتب - عيون الشعر - كتاب المراتب والمناقب من عيون الشعر - معاني الشعر الكبير - كتاب المعاني - ديوان الكتاب - تقويم اللسان - خلق الإنسان - كتاب الخيل - كتاب الأنواء - جامع النحو الكبير - جامع النحو الصغير - الميسر والقдах - فضل العرب على العجم - التسوية بين العرب والعجم - المعارف - عيون الأخبار - طبقات الشعراء - كتاب الحكاية والمحكي - كتاب فرائد الدرر - حكم الأمثال - آداب المعاشرة - كتاب العلم - كتاب القلم - الجوابات الحاضرة - تعبير الرؤيا - تاريخ ابن قتيبة - كتاب الجرائيم - كتاب الفرس في معاني الشعر - الإمامة والسياسة (١٥) وهذا مشكوك في نسبته الى (ابن قتيبة) وسوف نتطرق الى هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى.

«الموضوع صلة»

المصادر والمراجع:

(١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٣.

(٢) البداية ج ١١ ص ٤٨.

(٣) لسان الميزان ج ٣ ص ٣٥٩.

كان لهوياً

كثير

التأليف

عالم

التصنيف

(مساهمة بن)

تاسيم

(٤) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٢.

(٥) مقدمة كتاب تأويل مختلف الحديث.

(٦) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٢.

(٧) دقائق التفسير ج ٦ ص ٤٤٤، ٤٥٣.

(٨) لسان الميزان ج ٣ ص ٣٥٧، ٣٥٨.

(٩) لسان الميزان ج ٣ ص ٣٥٨.

(١٠) البداية ج ١١ ص ٥٧.

(١١) شذرات الذهب ج ٢ ص ١٦٩.

(١٢) شذرات الذهب ج ٢ ص ٤٧٨، ٤٧٩.

(١٣) تهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ٢٨١.

(١٤) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٣.

(١٥) مصادر مؤلفاته (يرحمه الله): «مقدمة كتاب

عيون الأخبار - لسان الميزان ج ٣ ص ٣٥٨ - شذرات

الذهب ج ٢ ص ١٦٩ - البداية ج ١١ ص ٤٨ - وفيات

الأعيان ج ٣ ص ٤٢، ٤٣ - مقدمة تأويل مختلف

الحديث - تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٤٧٩،

٤٨٠ - مقدمة أدب الكاتب - كشف الظنون ج ٥

ص ٤٤١ - دائرة معارف القرن العشرين ج ٧ ص ٦٣١

- الأعلام ج ٤ ص ١٣٧».

أعلام ومشاهير

«الإمام

ابن

قتيبة»

صاحب «أدب الكاتب»

وتفسير الأخبار

محمد بن عبد الرحمن

آل إسماعيل

- الأحساء -

«الحلقة الأخيرة»

والآن جئنا إلى أحد كتب الأدب الأربعة، ألا وهو «أدب الكاتب» الذي قال فيه العلامة (ابن خلدون) في مقدمته: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم، أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهي: أدب الكاتب (لابن قتيبة)، وكتاب الكامل (للمبرد)، وكتاب البيان والتبيين (للجاحظ) وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة، فتبع لها، وفروع عنها» (١).

وقال «ابن خلكان»: والناس يقولون: إن «أدب الكاتب» خطبة بلا كتاب .. وهذا فيه نوع تعصب عليه، فإن أدب الكاتب قد حوى كل شيء وهو مفنن، وما أظن حملهم على هذا القول إلا أن الخطبة طويلة، وقيل: إنه صنف هذا الكتاب لأبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المعتمد على الله بن المتوكل على الله الخليفة العباسي (٢).

* أقول: إن هذا الكتاب من حين تأليفه وهو في متناول العلماء والأدباء والكتاب بين شارح وناقد، وما ذاك إلا لأهميته وقيمه، ولولا قيمته العلمية، وظهور فائدته، ومساس حاجة الناس إليه لما تسابق المتسابقون على شرحه.

* فممن شرحه:

إسحاق بن إبراهيم الفارابي المتوفى سنة خمسين وأربعمائة، أو ما يقاربها، كما في (معجم الأدباء) «لياقوت»، وإسحاق هذا، خال اسماعيل بن حماد الجوهري، صاحب كتاب «الصحاح في اللغة»، وأبو إبراهيم، هو صاحب كتاب «ديوان الأدب» المشهور اسمه، الذائع ذكره (٣). فلولا قيمته العلمية لما أقدم على شرحه عالم كهذا. وممن شرح خطبته المبارك بن الفاخر بن محمد بن يعقوب. قال عنه ياقوت: «وكان قيماً بالنحو، عارفاً باللغة، وقد توفي في ذي القعدة سنة خمسين وخمسمائة» (٤).

وممن شرحه: محمد بن عمر بن عبد العزيز، المعروف (بابن قوطية) أبو بكر اللغوي النحوي، الأديب الشاعر كان أعلم أهل زمانه باللغة العربية إماماً متقدماً (٥) وممن شرح أبياته: أحمد بن محمد البشتي الخارزنجي المتوفى في رجب سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، له «تفسير أبيات أدب الكاتب» (٦).

قال في كشف الظنون: وله شروح أجراها شرح القاضي الأديب أبي محمد عبد الله بن محمد المعروف (بابن السيد البطليوسي) المتوفى سنة ٤٢١هـ، وهو شرح مفيد جداً، ومنها شرح منصور بن موهوب بن أحمد الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩هـ، وسليمان بن أحمد الزهراوي، وأبي علي حسن بن محمد البطليوسي المتوفى سنة ٥٧٦هـ، وأحمد بن داود الجذامي المتوفى سنة ٥٩٨هـ. الخ (٧).

* قلت: وشرح السيد البطليوسي «الاقتضاب في شرح أدب الكاتب» شرحاً طيباً، ولكنه كثير الاعتراض على المصنف، ولخصه العلامة المحدث اللغوي الشيخ طاهر الجزائري (رحمه الله) وطبع في المطبعة السلفية (٨).

هذا الكتاب الذي تتابع على شرحه، وشرح خطبته، وشرح أبياته العديد من الفحول لأبد. أنه يستحق ذلك، ولا بد من أن نعرف سر ذلك، وسوف يظهر لنا جلياً قيمة هذا الكتاب.

* قال صاحب كتاب (تاريخ آداب اللغة العربية): «أدب الكاتب يبحث فيما يحتاج إليه الأديب في صناعة الكتابة من الآداب والعلوم وإصلاح ما كان يقع فيه

الكتاب بأيامه من الخطأ أو الوهم في معاني الألفاظ أو الاشتقاقات، والتراكيب، مما نحن في حاجة إليه اليوم وقد قسم ذلك إلى أبواب في إقامة الهجاء، وتقويم اللسان، والأبنية» (٩).

والقارىء لهذا الكتاب يرى أنه إنما ذكر فيه ما يحتاج إليه الكاتب، وإصلاح ما يقع فيه الكتاب من الخطأ، ثم إننا في حاجة إليه اليوم. أقول: بل في أمس الحاجة إلى مثله، لاستعجاب لغة عصرنا (لغة الصحف والإذاعات والخطب).

وأسوق نماذج لخطبته الإصلاحية (رحمه الله)، بعد ما حمد الله وأثنى عليه، ونعى سوق الأدب، وحال بعض العلماء، وكساد سوق البر، قال:

«فأبعد غايات كاتبنا في كتابه أن يكون حسن الخط قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة، أو وصف كأس، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب، وينظر في شيء من القضاء، وحد المنطق، ثم يعترض على كتاب الله عز وجل بالطعن، وهو لا يعرف معناه، وعلى حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالتكذيب، وهو لا يدري من نقله. الخ».

ثم قال: «وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم، ومن الكتابة إلا بالاسم، ولم يتقدم من الأداة إلا بالقلم والدواة، ولكنها لمن شدا شيئاً من الإعراب، فعرف الصدر والمصدر، والحال والظرف، وشيئاً من التصاريف والأبنية، وانقلاب الياء عن الواو، والألف عن الياء وأشباه ذلك...»

ثم عرّج على السلوك والأخلاق وأدب النفس، فقال: «ونحن نستحب لمن قبل عنا وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب ويجانب قبل مجانبته اللحن وخطل القول وشنيع الكلام، ورفث المزح.

كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولنا فيه أسوة حسنة - يمزح، ولا يقول إلا حقاً، ثم قال: «ونستحب أن ينزل ألفاظه في كتبه، فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، وألا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس خسيس الكلام».

وإليك الآن النماذج التي اخترتها، وهي قطر من بحر، انتقيتها لحاجة المثقفين في عصرنا إليها، ولحاجة المذيعين والخطباء والمحاضرين.

قال في كتاب المعرفة (باب معرفة ما يضعه الناس غير موضعه): «فمن ذلك: (القافلة) يذهب الناس إلى أنها الرفقة في السفر، زاهية كانت أو راجعة، وليس كذلك، إنما القافلة الراجعة من السفر، يقال: قفلت فهي قافلة، وقفل الجند من مبعثهم، أي رجعوا، ولا يقال لمن خرج من العراق إلى مكة قافلة حتى يصدروا.»

* ومن ذلك (الطرب)، يذهب الناس إلى أنه في الفرح دون الجزع، وليس كذلك، إنما الطرب خفة تصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع، قال الشاعر، وهو النابغة الجعدي:

وأراني طرباً في إثرهم

طرب الواله أو كالمختبل!

وقال آخر:

فقلن: لقد بكيت فقلت: كلا

وهل يبكي من الطرب الجليد؟!

* ومن ذلك (الحشمة)، يضعها الناس مع الاستحياء، قال الأصمعي: وليس كذلك، إنما هي بمعنى الغضب، وحكي عن بعض فصحاء العرب: إن ذلك لما يحشم بني فلان أي يغضبهم.

* ومن ذلك (العترة)، يذهب الناس إلى أنها ذرية الرجل خاصة، وأن من قال عترة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فإنما يذهب إلى ولد (فاطمة) رضي الله عنها، وعترة الرجل ذريته وعشيرته الأذنون، من مضى منهم، ومن غبر، ويدل على ذلك، قول أبي بكر رحمه الله تعالى: نحن عترة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التي خرج منها، وبيضته التي تفتأت عنه، وإنما جيبت الرحي عن قطبها، ولم يكن أبو بكر رضي الله عنه ليدعى بحضرة القوم جميعاً ما لا يعرفونه.

* ومن ذلك (العبير) يذهب الناس إلى أنه أخلاط من الطيب. وقال «أبو عبيدة» العبير عند العرب الزعفران وحده، وأنشد:

وتبرد برد رواء العرو

سريا لصيف رقرقت فيه العبير

* ومن ذلك (الدعوة) في النسب بكسر الدال و(الدعوة) إلى الطعام بالفتح.

* قلت: وممن شذ، فضم دال (دعوة) الطعام «قطرب» في مثلثه المشهورة.

(وقد أفصح الأعجمي)، إذا تكلم بالعربية، و (فصح) إذا حسنت لغته، ولم يلحن.

و (أعال الرجل) إذا كثر عياله، وعال يعيل إذا افتقر. وعال يعول إذا جار، قال الله عز وجل: «ذلك أدنى ألا تعولوا.»

* ويقولون (رجل أعزب) وإنما هو عزب. وفلان خير الناس وشر الناس، ولا يقال أخير، ولا أشرب.

* ويقولون (فلان مستأهل لكذا)، وهو خطأ، وإنما يقال: فلان أهل لكذا. والمستأهل هو الذي يأخذ الإهالة.

* ومنه (ابن) إذا كان متصلاً بالاسم، وهو صفة إذا كتبته بغير ألف. تقول: هذا محمد بن عبد الله، ورأيت محمداً بن عبد الله، ومررت بمحمد بن عبد الله. الخ.

* أقول اعتاد المذيعون والخطباء أن يسكنوا نون «بن» مع أنها يجب أن تتبع ما قبلها في الضم والفتح والكسر، ولكنهم يسكنونها، ويأتون بها هكذا «ابن» في جميع الحالات، فإلى متى هذا الإصرار على الخطأ؟! * ومنه (مائة)، زادوا فيها ألفاً، ليفرقوا بينها وبين «منه» الأخرى أنك تقول: أخذت مائة، وأخذت منه» فلو لم تكن الألف لالتبس على القارئ.

* أقول: ولكن بعض الخطباء والمذيعين والمدرسين رأوا هذه (الألف) فظنوها مدة فمدوها، وهم يعلمون أنها تكتب، ولا تنطق، ولكنهم يجعلونها مدة، وما دروا بأن المد يغير المعنى، فإنهم إن سكنوا التاء المربوطة يكن المعنى من إضافة «الماء المعروف» هذا والله وأعلم.

المصادر والمراجع:

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٧٠

(٢) وفيات الأعيان.

(٣) معجم الأدباء ج ٦ ص ٦١، ٦٢، ٦٣

(٤) معجم الأدباء ج ٧ ص ٥٤.

(٥) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٥

(٦) معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٠٨

(٧) كشف الظنون ج ١ ص ٤٨

(٨) مقدمة عيون الأخبار ج ١ ص ٣٣

(٩) انظر جرجي زيدان.